اللغة العربية والجنسية العربية المشروعة

أ. د. فخر الدين قباوة

جامعة السلطان محمد الفاتح الوقفيّة - استانبول

السؤال: جاء في معجم مقاييس اللغة (٤: ٣٠٠) لأحمد بن فارس حديثٌ شريف نصّه ما يأتي: «إنَّ العَرَبِيّةَ لَيسَتْ بابًا واحِدًا، لكِنَّها لِسانٌ ناطِقٌ». فما هي القيمة العلمية لهذا النصّ المشرَّف؟ وما هو أثره العملي في حياة المسلمين والعرب؟

الإجابة: هذا في مطبوعة معجم مقاييس اللغة هو نصّ القول المطهَّر، وقد حرّفه الأستاذ عبد السلام هارون، وصوابُ رواية أوّله كما جاء في حاشية المطبوعة عن النسخة الخطيّة لديه: «إنَّ العَرَبِيّةَ لَيسَتْ بأبٍ والِدٍ»، فلم يستطع أن يفهم معناها كما هي على الصواب، فأفسد حقيقة اللغة العربية وجعلها ذات أبواب لا يَعرف مداها إلّا اللهُ تعالى. وهكذا ضخّم حدود لغتنا الحبيب جريًا على ترهيب المستشرقين وأوصياء العربية في هذا العصر المنكوب بأهله وأعدائه، ترهيبًا منها وتهويلًا لشأنها في نفوس محبّيها والدارسين والباحثين والمحقّقين، على الرغم من وضوح الدلالة والمضمون.

فقد ذكر الإمام ابن تيمية[١] عن مالك عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: جاء قيس بن مطّاطيّة، إلى حلقة فيها صُهيبٌ الرومي وسلمانُ الفارسي وبلالٌ الحبشي، فقال: هذا الأوس والخزرج قد قاموا بنُصرة هذا الرجل. فما بالُ هؤلاء؟ فقام مُعاذ بن جَبل فأخذ بتلابيبه، ثم أتى به النبي صلى الله تعالى عليه وسلم، فأخبره بمقالته،

١ اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيميه ٨: ٥٢.

فقام النبي مُغضَبًا، يجرّ رداءه حتّى دخل المسجد، ثم نُودِي أنّ الصلاة جامعة، فصعِد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

«أمّا بعدُ -أيُّها الناسُ- فإنّ الرّبَّ ربٌّ واحدٌ والأبَ أبٌ واحدٌ والدِّينَ دِينٌ واحدٌ، وإنَّ العَرَبيّةَ ليسَتْ لأحَدِكُم بأبٍ ولا أُمٍّ. إنَّما هي لِسانٌ، فمَن تكلّمَ بالعَرَبيّةِ فهُو عَرَبيٌّ»، فقام مُعاذ بن جبل فقال: بِمَ تأمرنا في هذا المنافق؟ فقال: «دَعْهُ إلى النّارِ». فكان قيس ممّن ارتدّ فقُتل في الرِّدّة. ثم قال ابن تيمية: هذا الحديث ضعيف، وكأنه مركّب على مالك، لكنّ معناه ليس ببعيد، بل هو صحيح من بعض الوجوه.

وقد رَوى هذا الحديثَ ابنُ عساكرَ[1] وفيه «أيُّها النّاسُ، إنَّ الرَّبَّ واحِدٌ والأبَ أبٌ واحِدٌ، ولَيسَتِ العَرَبيّةُ بأحَدِكُم مِن أبٍ ولا أُمٍّ، وإنَّما هِيَ اللِّسانُ، فمَن تَكلَّمَ العَرَبيّةَ فهُوَ عَرَبِيٌّ»، وقال عنه: «هذا حديث مُرسل، وهو مع إرساله غريب، تفرّد به أبو بكر سلمة بن عبد الله الهُذلي البصري، ولم يروه عنه إلّا قُرّةُ».

فالحديث كما ترى سنده ضعيف وغريب، ومعناه صحيح بأنّ العُروبة الشرعية غيرُ العُروبة التي يُحتكم إليها في أمور النسب والإرث والنكاح والحِجاب. فمَن تكلّم باللغة العَربية عن مَحبّة كان عَربيًّا عند المسلمين. وهذا يعني أنّ جميع الشعوب الإسلامية التي تتكلّم بالعَربية في قراءة القُرآن الكريم والحديث الشريف والأدعية والعلوم الشرعية هم من العَرب، ومَن رغب من العَرب وغيرهم عن هذه اللغة الإسلامية المكرّمة وفضّل اللغات الأجنبية أو اللهجات العامّية المحلّية في الاستعمال فهو غير عَربي عند المسلمين، وإن كان نسبه ذا صلة بالعَرب الأقحاح.

وبما أنّ المسلمين جميعًا يمارسون هذه اللغة الشريفة عن محبّة في تلك الميادين المذكورة فإنّ عدد العَرب في العالم هو الآن أكثر من ٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠ (مليارين)، لا ٥٠٠٠٠٠٠٠٠ (خمسُمِائَةِ مَليون) كما يدعي كثيرٌ من الباحثين والمؤرّخين، بل إن المسلمين من غير الأصل العربي هم أقرب إلى العُروبة من الآخَرين إذ يكونون ألصق منهم بإخوانهم أهل الحجاز في مسألة الهمز. فقد كان الحجازيّون وفيهم

١ تاريخ دمشق لابن عساكر ٨: ١٩٠ – ١٩١، و٢٣: ٢٠٣.

قُريش يختارون من اللهجات العربية أفصحها وأيسرها، فعُرفوا بتخفيف لفظ الهمزة استحسانًا إذا لم تقع في أوّل الكلام:[١] إمّا بحذفها ونقل حركتها إلى الساكن قبلها، وإمّا بإبدالها حرفَ علّة، وإمّا بتسهيلها لتكون بين لفظها ولفظ حركة ما قبلها من ألف أو واو أو ياء، أي: سهلةً مختلسة قريبة من السكون. وهذه هي لغة النبي ﷺ في قومه، وهي شائعة في الشعوب الإسلامية وبعض عرب المغرب، فهم أقرب منّا -نحن عرب المشرق- إلى حبيبنا ﷺ في هذه الخاصّيّة المباركة.

ثم لقد سئل حبينا الغالي: مَن آلُ مُحمّدٍ؟ فقال: «كُلُّ تَقِيٍّ»، وتلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤].[٢] فالمؤمن المتّقي، أي مَن يتجنّب غضب الله ويطلب رضاه بالطاعة في الأمر والنهي، فهو مِن أولياء النبي ﷺ ومِن آله المكرَّمين. وهذه الآليّة هي غيرُ ما كان له من أزواج وذرّيّة، وغيرُ من لا تحلّ لهم الصدقة: آل عقيل وآل عبّاس وآل الحارث بن عبد المطّلب، هم ومَواليهم. إنها آليّة الولاء والإيمان والنُّصرة والتقوى. فمَن اجتمعتْ فيه هذه الصفات العالية كان مِن الآل الكرام.

أمّا مَن جاء من ذرّيّته في التاريخ والعصر الحاضر من الروافض الباطنيّين السفّاحِين المجرمين يثير الفتن للتقتيل والتخريب والتكفير والفساد تأييدًا لزعيم أو حزب أو إمام وهمي فهو بعيد عن هذه المنزلة الرفيعة ومنسوب إلى مَن تولّاه وانقاد إليه. هذا سيّدنا إبراهِيمَ عندما خاطبه الله تعالى بقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] رغبَ أن تكون ذرّيّته كلها كذلك فـ ﴿قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، جاءه الجواب الربّانيّ الكريم: ﴿قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ دالًّا على أنه ينال غيرَ الظالم منهم فقط.

وهذا سلمانُ الفارسي كان ولاؤه لرسول الله، ولمّا تنافس الصحابة الكرام في اختياره منهم قال رسول الله:[٣] «سَلمانُ مِنّا، أهلَ البَيتِ»، فهو حقيق بهذه الآليّة بإيمانها وتقواها وصلاحها وعُروبتها، وإن كان له نسب غير عَربي. وكذلك مَن

١ انظر علم الصرف ١: ٢٠٣ - ٢٠٦.

٢ المعجم الأوسط ٣: ٣٣٨، والبحر المحيط ١: ١٦٢.

٣ المستدرك ٣: ٦٩١.

كانت فيه هذه الصفات العالية، فأنت -يا أخي الكريم- تستطيع أن تنال هذه المرتبة المتميّزة حين تحقّق في نفسك صفاتها اللازمة.

قد يقال: أنتم تعتمدون هنا أحاديثَ وصفَها العلماء بالضعف، فهل يصحّ كون المسلم بأنه عربي قرشي من آل النبي اعتمادًا على مثل الروايات المستضعفة؟ والجواب أن ذلك الاعتماد مشهور في مذهبِ الإمام أحمد، والمذهبُ العامّ عند العلماء أنهم خصّصوا الأمر فمنعوا الاستشهاد بالحديث الضعيف في أحكام العقيدة والعبادة، وأجازوا ذلك في باب الرغائب والرهائب وفضائل الأعمال إذا لم يوصف ذلك الحديث الضعيف بأنه شديد الضعف أو موضوع.[1]

ولكِنَّ اللهَ سَلَّمَ...

قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال: ٤٣]. فما هو معنى «ولكِنَّ اللهَ سَلَّمَ» ههنا؟ وهل له صلة بالآية ٤٢ قبله؟

يذكر المفسّرون أنّ المعنى:[2] لو أراكَهُم إيّاهم في منامك كثيرًا لخِرتم وجبُنتم عن اللّقاء ولتنازعتم في الأمر، أي: تفرّقت آراؤكم فكان ذلك سببًا لانهزامكم، لأنّه لو رآهم النبيّ كثيرًا أخبركم برؤياه ففشلتُم، ولكنّ اللهَ سلّم من الفشل والتّنازُع والاختلاف بإراءته له الكفّارَ قليلاً فأخبركم بذلك، فقويتْ به نفوسُكم. إنّ الله عليم بذات الصُّدور، يعلم ما سيكون فيها من الجُرأة والجُبن والصّبر والجَزَع.

ورُوي عن ابن مسعود[3] أنه قال: لقد قُلِّلُوا في أعيُننا يومَ بدر حتّى قلتُ لرجل إلى جَنبي: أتراهم سبعينَ؟ قال: أراهم مِئَةً. فأسَرْنا رجلاً منهم فقلنا: كم كنتُم؟ قال: ألفًا. فجُعل القليل وصفًا لهم لازمًا ثابتًا دائمًا عليهم بما أوجب فيهم من نقص ذواتهم بخفاء فِطرتهم وما وراءَ خَلق الفِطرة. وهذا تراه في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَإِذْ

١ انظر النكت على مقدمة ابن الصلاح للزركشي ٩٤.

٢ انظر البحر المحيط ٥ : ٣٣٠.

٣ نظم الدرَر في تناسب الآيات والسور ٨ : ٢٩٠.

يُرِيكَهُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الأنفال: ٤٤].

على هذه الحال تقريبًا تسير عِبارات المفسّرين، ولو نظرتَ معي إلى الآية المتقدّمة على ما مضى، وفيها النص الكريم: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِي ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنفال: ٤٢]، لرأيتَ صلةً واضحة بينها وبين ما جاء بعدُ في الآية التالية من تقدير الله وقضائه بأن سلّم من التّنازُع والاختلاف، فأوقع المعركة على غير ميعاد: ﴿لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾. حتّى كأنك تقول معي: إنّ أسباب النزول للآيات واحدة، وجوابَ الشرط في الآية ٤٣ هو أيضًا كتتمةِ الجواب في المعنى للشرط في الآية ٤٢، أي: فلو تواعدتُم لاختلفتُم وكان غيرُ ما انتهت إليه المعركة من إحقاق الحقّ وإبطال الباطل.

ثم أراك تقول: بل نحن نوسِّع دائرة الحُكم الربّاني هنا، فنرى أنه يشمل جميع العلاقات الإنسانية في الحياة. خذْ مثلاً موضوع الزواج بين الرجل والمرأة. فجميع هذه الأحداث الإنسانية، وهي بالملايينِ يوميًّا، تقوم في الغالب على رضا الطرفين فيما بدا لهما من الصفات والأخلاق والقدرات والأعمال، ولو تكاشفَ الطرفان فيما عندهما واطّلع كل منهما على الحقائق من ذلك كما ستبدو بعد الزواج، لَما كان عقد ولا نكاح، ولكنّ الله سلّم بظاهر الأحوال لتستمرّ الحياة ويكون تحقيق لسنّته في ذلك.

والحال واحدة في جميع المُعاملات التجارية والصناعية والزراعية والمالية والتعليمية والتربوية المشتركة واللقاءات والاجتماعات والمؤتمرات والعقود والمعاهدات، فيها من دخائل الغشّ والخِداع والمَكايد والفساد ما لا يُرضِي الأطراف المَعنِيّة بالتعاون والاتفاق، ولكنّ ظواهر الأحوال تشجّع على التعامل والمراضاة. وأظهرُ ذلك تراه في الاتفاقات السياسية بين الأحزاب والكُتل والدول والأمم، تكون غالبًا مبنيّة على المكر والتآمر والعدوان والإفساد والاستعباد من أحد الأطراف، وظاهرها الصداقة والتعاون في المجالات المختلفة كما هي الحال الآن بين كثير من

المتمسلمين والحُلفاء المتهوّدين، ولو عرَف الجانبان بوضوحٍ ما يُخفيه كل منهما لَما جرى وفاق ولا اتّفاق ولا عقود ولَما كانت حياة ولا تعارُف ولا تعاوُن ولا وِفاق.

أذكرُ منذ خمسين سنة أنه عُرِضت قصّة في التِّلفاز عن إنسان لديه من الفِراسة ونفوذ البصيرة ما يُطلعه على دخائل النفوس فيمَن يصادف من الناس، فكان في كل موقف ومشهد يستعرض ما لدى الآخرين من الخَفايا السيّئة، فيأبى أن يعاونهم أو يشاركهم فيما يعرضون عليه ويتكلّمون عنه، وقد أتعبه هذا وأجهده حتى عجَز عن التعامل مع الناس وعن العيش بينهم خَشية ما في نفوسهم من دخائل الغِشّ والخِداع والمَكايد والبلاء، وتمنّى أن يفقد تلك الفِراسة ليستطيع العيش بنشاط وحيوية وأمان.

فالآية الكريمة التي تساءلتم عمّا فيها تشمل نهايتُها ما ذكرناه وما هو من أمثاله ممّا لا يُحصَى، تُطمْئنُ الناس إلى التفاؤل والرضا بما يتعاملون فيه من أمور حياتهم، وتؤنسهم بمتابعتها والعمل بها لتحقيق مقاصد الدنيا والآخرة، وتشجّعهم على التفاهم والتآلف والتعاون في ذلك بوعي ودقّة وإخلاص لأنه خيرُ ما يمكن أن يحصل في مَعمعان الظروف والأحوال والأوضاع الإنسانية المحيطة بالمخلوقات. وهو شرح عَمَلي للحكمة الشائعة: «لوِ اطّلعتُم على الغيب لاخترتُمُ الواقعَ».

ولهذا نردّد الآن معًا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥]، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢]، ﴿وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ [الأنفال: ٤٣]، ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]، ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]! وسُبحانَ ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ [السجدة: ٧]، ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]! وصدق الله العظيم، وإنّنا على ذلك لمن الشاهدين.

قائمة المصادر والمراجع

- **اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم**، لتقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: ناصر العقل، دار عالم الكتب، بيروت، ١٩٩٩م.
- **البحر المحيط في التفسير**، لأبي حيان محمد بن يوسف أثير الدين الأندلسي، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ.
- **تاريخ دمشق**، لأبي القاسم علي بن الحسن المعروف بابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر، ١٩٩٥م.
- **المستدرك على الصحيحين**، لأبي عبد الله الحاكم النيسابوري، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠م.
- **المعجم الأوسط**، لسليمان بن أحمد أبي القاسم الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة.
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، إبراهيم بن عمر بن حسن البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة.
- **النكت على مقدمة ابن الصلاح**، لبدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي، تحقيق: زين العابدين بلا فريج، أضواء السلف، الرياض، ١٩٩٨م.